كان صوته أندى، وأثره أشمل وأعمق. وذلك هو أدب الحب يستأثر بالحظوة العزيزة في القصة وفي الشعر وفي غير ذلك من ألوان الأدب، وهل كانت للحب تلك الحظوة إلا بأنه عاطفة إنسانية تلائم كل نفس، وتطاوع كل هوى، وأنه بضعة أصيلة في الطبع البشري ينجم عنه كثير من العواطف والتأثرات، فهو دعوة مستجابة ونداء مسموع، وهو عند الجمهور العام مكفول له القبول

والتعويل كل التعويل على منهج المعالجة لأمثال هذا الموضوع الإنساني العام، فقد يتناول موضوع الحب أديبان أحدهما غير فنان والآخر فنان أصيل. فأما غير الفنان فإنه يطرق الموضوع في تصنع فيقلب الحقائق ويزور الواقعات ويجتلب زائف المؤثرات، ويفوته التهدي إلى بطائن القلب البشري حين تعتمل فيه عاطفة الحب فإذا هو يخرج لنا صورة شوهاء، لأنها صورة مكذوب بها على الحياة والأحياء. فأما الأديب الفنان فإنه يطرق الموضوع عينه، ولكن على بصيرة وهدى، وفي أمانة وإخلاص، فيخرج عمله صادق الوحي خالد الأثر.

البقية في العدد القادم

محمود تيمور

في فضل محمد (ص)

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

قرأت بشيء من التعجب مقال الكاتب الإسلامي محمد عبد الله السمان في «المعاني الحية في رسالة محمد» فإذا هو في صميمه مقال في شخصية الرسول (ص) وفي عظمته، وإذا تحمسه لبعض النواحي العظمى للرسالة يحمله على إنكار بعض نواحي أدلة تلك الرسالة التي هي أيضاً بعض مظاهر عظمة الرسول، في غلو في التعبير جاء فيه ما لا أشك أنه يعلمه من أدب الإسلام في الدعوة، ثم هو بعد ذلك لا يصيب حقيقة عظمة الرسول

إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه متعدد نواحي العظمة، والإسلام الذي هو رسالة الرسول متعدد نواحي الدعوة تعدد نواحي الفطرة التي هو دينها. وليس الناس سواء في تقدير تلك النواحي، فمنهم الخواص الذين يكبرون ما أكبر الأستاذ، ومنهم العوام الذين يقصرون عن ذلك ولا يكبرون ما دعا إلى إكباره من تحرير الإسلام العقول والنفوس إلا عن طريق إيمانهم بتلك النواحي التي لم يأبه هو بها والتي نعى على خطباء المساجد والسرادقات الإشادة بها في احتفالات ذكرى ميلاد الرسول، وأكثر شهودها هم العوام الذين أمر الرسول صلوات الله عليه أن يخاطبوا على قدر عقولهم وإلا كان مخاطبوهم فتنة عليهم

ولو غير الأستاذ السمان نعى على المسلمين ما يمنون على الرسول صلى الله عليه وسلم بما أجرى الله على يديه من الخوارق لقلنا غير مؤمن بالخوارق والمعجزات، ولكن الأستاذ والحمد لله مؤمن مجاهد يؤمن بالقرآن وبما أثبت للأنبياء من معجزات أكرمهم الله وأيدهم بها لم تكن لتثبت لهم في عصرنا هذا إلا بالقرآن. والقرآن نفسه أثبت لمحمد صلوات الله عليه من المعجزات — إذا أغفلنا شرط التحدي فيها — ما شاء الله. أثبت له الإسراء في سورة الإسراء، والمعراج في سورة النجم، وانشقاق القمر في سورة القمر، إذا أخذنا الآيات على ظاهرها كما ينبغي ولم نلجأ إلى التأويل تهربا من إثبات إلا الأقل الذي لا بد منه من المعجزات؛ فالتأويل لا يجوز إلا بقرينة حاملة، والقرينة غير موجودة، والحديث الشريف الصحيح يفسر تلك الآيات ويصف من تفصيلها ما أجمل القرآن. فهل تلك المعجزات يا ترى ليست من مظاهر عظمة الرسول ؟ بلى !

فإن الله الذى لا يقدر على إجرائها غيره أجراها تأييدا له أو تكريما . وفى كل تعظيم للرسول أى تعظيم

والحديث الصحيح أثبت للرسول صلوات الله عليه خوارق كثيرة كمعجزات الأنبياء والرسل من قبله . منها حنين الجذع الذى كان صلى الله عليه وسلم يخطب عنده قبل اتخاذ المنبر . ومنها تكثير طعام جابر حتى أشبع جيش الخندق ، وتكثير اللبن حتى أروى أهل الصفة من قدح استقله أبو هريرة لنفسه وللرسول ، وتكثير الماء فى الإناء حتى استقى منه جيش تبوك . ومنها رد عين أبى قتادة فى غزوة أحد أو بدر ، وإبراء عين على رضى الله عنه وعن أصحاب رسول الله أجمعين فى غزوة خيبر . وما من هذه إلا قد شهده الجم الغفير من الناس . فليت شعرى لماذا نؤاخذ الوعاظ إذا ذكروا الناس بما أكرم الله به نبيهم من تلك المعجزات فى ذكرى مولده الشريف ؟ أو لماذا ينعى على الناس استشعارهم السرور والفخر بنبيهم الذى أكرمه الله تلك الكرامة وأنزله تلك المنزلة ! لو أن أمثال الأستاذ السمان انتهزوا اهتزاز الناس ذلك وذكروهم بوجوب العمل بما أهملوه ونسوه من رسالة الرسول لكان خيرا للناس وأعظم أجرا له ولأمثاله . أما النعى على من يذكر الناس بناحية من نواحى عظمة الرسول يرى هو غيرها أكبر منها ، أو النعى عليهم إذا خرجوا من تلك الذكرى يعددون ما ذكروا به وازدادوا به إيمانا من تلك المعجزات ، ففيه من الغلو والإسراف وتحجير الواسع ما فيه

وأعجب من هذا وأوغل فى الإسراف نعيه على « صنف » من المسلمين يفضلون محمدا على الرسل ، ويجعلونه إمامهم ويجعلون رسالته فوق رسالاتهم والمسلمون كلهم ذلك الصنف الذى زعم الأستاذ ومنهم الأستاذ السمان نفسه بما كتب فى مقاله من الناحية التى يعظمها ويكبرها . وإلا فأى الرسل أصلح الله به ما أصلح بمحمد صلوات الله وسلامه عليه ؟ وأى الرسالات بلغت مبلغ الإسلام وحققت ما حقق الله ، من تحرير العقول والنفوس فى الماضى ولا يزال يدعو إلى تحريرها من كل سلطان غير سلطان الله سبحانه خالق الكون وفاطر الناس ؟ وإذا كان الأستاذ يستشهد على من ظنهم خصومه من المسلمين بأن أمة الإسلام خير أمة أخرجت للناس أفلا يكون الرسول الذى أخرج الله على يديه تلك الأمة خير الرسل ؟

إن محمدا صلى الله عليه وسلم جمع الله له ما فرق فى الرسل . آتاه من المعجزات مثل الذى آتاهم ، وخصه صلى الله عليه وسلم بالقرآن الكريم معجزة خالدة لا تضارعها معجزة ، وبدين شهد الله له بما لم يشهد به لدين قبله . شهد له بالكمال حين أنزل عليه فى الموقف فى حجة الوداع « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » . وشهد له صلى الله عليه وسلم بما لم يشهد به سبحانه لنبى قبله من عموم الرسالة وعموم الرحمة به فى قوله تعالى من سورة سبأ « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ولكن أكثر الناس لا يعلمون » وقوله تعالى من سورة الأنبياء « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . وأمثال الآيتين فى القرآن الكريم كثير

والرسالة نفسها ليست مما لمحمد فضل فيه فإنه لم يأت بشئ منها . والآيات التى استشهد بها الأستاذ من قول الله لا من قول محمد كما يعلم الأستاذ طبعا . فلو لم يشغله الحماس عن التدقيق لما خفى عليه أن مبادئ الإسلام نفسه ليس لمحمد فضل فيها إذ لم تكن من عنده ، وإذا كان هو مأمورا بالإيمان بها كغيره ، وإذ عاش فى قومه أربعين سنة قبل الرسالة لم يؤثر عنه أنه دعاهم فيها حتى إلى التوحيد ، وإن أثر أنه لم يسجد لصنم وأنه كان قبل الرسالة من الموحدين . فالثناء الذى أثنى به بعض المستشرقين عليه أنه كان من عظماء المصلحين ثناء مدخول كان

لا ينبغى أن ينخدع به الأستاذ لأن مبعثه اعتقادهم أن القرآن من تأليفه وأن الإسلام من وضعه . وكل ثناء عليه صلى الله عليه وسلم بغير النبوة والرسالة هو فى الواقع دون مقامه الكريم ولو كان ذلك الثناء أنه بطل الأبطال وأعظم المصلحين

إن حقيقة عظمته صلى الله عليه وسلم ليست فى الرسالة نفسها ولكن فى أنه أدى الرسالة على وجهها . فالرسالة من عند الله ليس لمحمد ولا لغيره منها شئ ولا له فى مبادئها فضل ، وإنما الفضل كله أنه أداها كما ينبغى أن تؤدى ، وتحمل فى أدائها كل ما تحمل ، ونهض بأعبائها نهوضا لم يكن لينهضه إلا من بلغ غاية كمال البشرية . وهذا هو ما يقصده الذين يقول الأستاذ أنهم يرفعون محمدا فوق مستوى البشر . وما مستوى البشر الذى يعرفه الأستاذ أو يمكن أن يعرفه فى تاريخ البشرية إذا قيس بالمستوى الذى بلغه سيد البشر وخاتم الرسل محمد بن عبد الله ؟

إن أعجب العجب أن يقوم فرد بأعباء دين أعجز البشرية أن تحمله وتقوم بأعبائه إلا مجتمعة ! والترقى داخل حدود الإسلام ليس له نهاية ، لأن حدود الفطرة نفسها ، إذ هو دين الفطرة بل نفس الفطرة التى فطر الله عليها الناس ، بشهادته سبحانه فى سورة الروم . وكل ما يمكن البشر أن يبلغه من الرقى فى الفطرة قد حققه الله للبشرية فى محمد ابن عبد الله ورسول الإسلام الذى لا ينطق عن الهوى ، والذى صار كل عمل له سنة ، وكل قول له حجة لله على عباده ، لا عملا أو قولا لم يقره الله عليه فى حوادث معدودة نطق بها القرآن وأحاطت بها سنة الرسول . فكأنما أعد الله محمدا من بين البشر فى تاريخ البشرية المتطور للقيام بأعباء دين الله الكامل ؛ تلك الأعباء التى تفرق القيام بها فى الناس ، فى الصالحين وأولى العزم من المسلمين حتى صار المتأسى به صلى الله عليه وسلم عن اجتهاد وصدق فى صفة من صفاته مثلا يضرب فى مكارم الأخلاق إلى اليوم كما ضرب المثل فى أبى بكر وعمر وعلى ومن إليهم من الصحاب وممن تبعهم بإحسان . فالكمال البشرى قد جمعه الله لمحمد الفرد كى يستطيع أن يقوم بدين الله دين الفطرة والبشرية الكاملة . أفلا يكون صلى الله عليه وسلم لذلك أكمل البشر على الإطلاق

هذه نتيجة منطقية ليس عنها محيص ، وليس فيها انتقاص لأحد من الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فالله سبحانه قد فضل بعض رسله على بعض كما أخبرنا سبحانه فى آية تلك الرسل ؛ والحديث الذى ساقه الأستاذ السمان يشهد بذلك التفاضل . والأفضلية فى صفة غير الأفضلية فى مجموع الصفات . والنهى فى الحديث الكريم عن التخيير بين الأنبياء موجه فى الأصل إلى ذلك اليهودى لأنه هو الذى خير كما يتبين الأستاذ إذا رجع إلى الحديث . وجاء النهى عاما لحكمة غير نهى المسلم عن التعصب لأن المسلم فى الحديث لم يزد على أن أنكر أن يكون موسى أفضل من محمد . وما يوهمه الحديث خلاف ذلك ليس على إطلاقه ولكنه محدود بما ذكر فى الحديث . والثناء على موسى صلوات الله عليه بصفة تميز بها هو مثل فى التواضع ضربه الرسول صلى الله عليه وسلم لأمته ليكون تشريعا فى مثل حادثته وهو يؤيد ما ذهبنا وتذهب إليه مع جمهور المسلمين من أنه صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى للبشرية حققه الله للناس تاريخا واقعا . والمثل الأعلى يقترب منه المجتهدون فى بلوغه اقترابا بقدر ما أطرد اجتهادهم من غير أن يبلغوه مهما اجتهدوا

وصلوات الله وسلامه على الرسول الكامل الذى حقق الله به وفيه الفطرة الإنسانية الكاملة محمد بن عبد الله

محمد أحمد الغمراوى